إشكالية الهوية الوطنية في تاريخ الجزائر بين الخطابين الاندماجي والإصلاحي فرحات عباس وعبد الحميد بن باديس إنموذجا"

أ. زازوي موفق
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان- الجزائر

الملخص

تعد مشكلة الهوية من المشاكل التي باتت تؤرق الباحثين والقائمين عليها، لاختلاف الرؤى وتعدد وجهات النظر إليها.

وحاولنا في هذه الورقة الوقوف على نوع الصراع الذي دار حول الهوية الوطنية في الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي،لابهدف التعرف على أهم الخطابات القوية التي سادت تلك المدة وخاصة تلك التي جرت بين التيار الإدماجي ممثلا في شخصية فرحات عباس الشاب والتيار الإصلاحي الذي ينسب إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس، وذلك للكشف عن مرجعيتهما وأبعادهما ، للوصول إلى ما هو ثابت أصيل في هذا البلد، وما هو متغير دخيل. علما أن الأول من دعاة النظرة السلبية لتاريخية الوطن الجزائري .بينما يمثل الثاني ردة فعل قوية لإثبات عراقة أصالة هذا المجتمع.

The problem of national identity in the history of Algeria Between the rhetoric of integration and reform Farahat Abbas and Abdelhamid Ben BadisNamudhjan

Prof. Zazwi Mowaffak
Faculty of Humanities and Social Sciences
University of Tlemcen – Algeria

Abstract

The problem of identity is one of the problems that have become a source of concern for researchers and those who maintain it, because of the different visions and the multiplicity of viewpoints.

In this paper we try to identify the type of conflict that took place around the national identity in Algeria during the French colonization, in order to identify the most important speeches that prevailed during that period, especially those that took place between the mainstream integration represented by the personality of the young Farhat Abbas and the reformist movement, The first is a proponent of a negative view of the history of the Algerian homeland, while the second represents a strong reaction to prove the originality and originality of this society.

المقدمة

يعد مشكل الهوية من المشاكل التي باتت تؤرق الباحثين والقائمين عليها، لاختلاف الرؤى وتعدد وجهات النظر إليها.

ونظرا لعدم تمكن بعض المجتمعات من الفصل فيها أو الوصول إلى إجماع حولها، جعل من هذه الأخيرة مشكلا يستعصى حله، مما ينتج عن ذلك جملة من التبعات.

والمجتمع الجزائري واحد من هذه المجتمعات التي لا زال يعيش إلى يومنا هذا أزمة هوية . ولا شك أن عدم الفصل في مثل هذه القضايا قد يكون واحدا من العوامل التي عطلت عملية التنمية على كافة الأصعدة ... ولمعرفة أعمق بهذا الوضع يتطلب منا الرجوع إلى تاريخ الجزائر للوقوف على جذور هذا الصراع الهوياتي الذي لا زال يطرح نفسه على الساحة السياسية .

نحاول في هذه الورقة الوقوف على نوع هذا الصراع الذي دار حول الهوية الوطنية في الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي،بهدف التعرف على أهم الخطابات القوية التي سادت تلك المدة وخاصة تلك التي جرت بين التيار الإدماجي ممثلا في شخصية فرحات عباس الشاب والتيار الإصلاحي الذي ينسب إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وذلك للكشف عن مرجعيتهما وأبعادهما ، للوصول إلى ما هو ثابت أصيل في هذا البلد، وما هو متغير دخيل. علما أن الأول من دعاة النظرة السلبية لتاريخية الوطن الجزائري .بينما يمثل الثاني ردة فعل قوية لإثبات عراقة أصالة هذا المجتمع.

وعلى هذا الأساس يمكننا التساؤل.

– ما المقصود بالهوية ؟

– وما طبيعة الخطابين الإدماجي والإصلاحي؟ وما مفهومهما للهوية ؟

للإجابة على هذه التساؤلات نقترح الخطة التالية:

١/- مقدمة

٢/- تحديد مفهوم الهوية من خلال الوقوف على بعض خصائصها .

٣/- قياس مفهوم الهوية وخصائصها على الخطابين الإدماجي والإصلاحي لمعرفة أيهما أقرب إليها.وحافظ على خصائصها. وأيهما ابتعد عنها.

٢/- في تحديد مفهوم الهوية وخصائصها

٢-١/- لغة:

إذا نظرنا إلى مصطلح الهوية في العربية هي مصطلح صناعي مركب من ضمير الغائب "هو" وهو عبارة عن رابطة ومعناه الوجود ، وسمي بالرابطة لأنه يربط بين معنيين ، ولما كانت لفظة "هو" ليست اسما ولا كلمة في اللغة العربية فانه تعذر إيجاد مصدرا منها.

- وكلمة هوية ليست في الأصل عربية ولكنها وضعت للضرورة فقد اضطر المترجمون إلى اشتقاق هدا الاسم من حرف الرباط والذي وجد أساسا ليربط بين المحمول والموضوع،كقولنا إن سقراط هو إنسان أو هو حيوان ناطق .

ولما وجدوا،هذا الحرف يقوم بهذه الوظيفة فقد اشتقوا منه اسم ' هوية'، على ما اعتاد عليه العرب من اشتقاق اسم من اسم لأن الحرف لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال مصدر اشتقاق. وبهذا أصبح هذا الاسم يدل على ما يدل عليه ذات الشيء [١] .

أما إذا رجعنا إلى اللغة الفرنسية فان ''كلمة identité مشتقة بدورها من كلمة identitas وهذه الكلمة مشتقة بدورها من كلمة idem وتعني المثل أو الشيء نفسه[٢]. ليبقى المعنى واحد في اللغتين العربية والفرنسية.

٢-٢/-اصطلاحا:

أ/ في الفلسفة:

يختلف مفهوم الهوية باختلاف الحقب التاريخية وباختلاف المقاربات التي تناولته.

في'' الفلسفة وفي المنطق خصوصا يعبر عنه بمبدأ الفكر وأساسه ويعني تطابق الفكر مع ذاته، وهو ما يعرف بمبدأ الهوية أو الذاتية. يعبر عنه بالصيغة : أ = أ فالشيء هو ذاته ولا يمكن أن يصبح شيئا آخر رغم التحول والتغير الذي يطرأ عليه وهو لا يصدق على المساواة الرياضية فحسب بل يصدق على كل علاقة منطقية(٣).

عندما نعود إلى تاريخ الفلسفة نجد نوعين من الخطابات أحدهما يقول بالثبات والآخر يقول بالتغير.

يمثل الأول برمينيدس الذي كان يرى''أن الوجود قديم ثابت كامل، فأنكر الكثرة والتغير واعتبرهما وهما وظلما(٤). لذلك فان ثبات الأشياء يتطلب أن تكون بعيدة عن كل تغير

أما الثاني يمثله هيرقليطس الذي كان يرى: '' أن الأشياء في تغير دائم وقد عبر عنه في شكل صورتين :

أ/١ – الأولى جريان الماء عندما قال :''أنت لا تنزل في النهر الواحد مرتين فلأن مياهه جديدة تجري من حولك.

أ/٢- أما الصورة الثانية:فهي أن اضطرام النار أسرع حركة و أدل على التغير "٥هذا ما ذهب اليه كلود ديبار عندما قال: '' لا يوجد جهر أبدي فالكل خاضع للتغير إن هوية أي كائن امبريقي تخضع للفترة التي يتناول فيها، وبوجهة النظر التي يتناول من خلالها(٥).

ولهذا جاء التعريف الفلسفي جامعا بين الثبات والتغير.فالهوية هي ما يبقى هو نفسه وكما هو بالرغم من اختلاف طرق إدراكه وبالرغم مما يطرأ عليه من تحول وتغير.

ب/ في علم النفس:

الهوية كأنا :

"عرف على أنه بناء نفسي يتكون من صفتين أساسيتين هما الشعور واللاشعور...انه فاعل داخل مجموعة من الوظائف منها الواقع، والنزوات، والأهواء، والدفاع، والعلاقات، والتكيف[٦].

إن التعريف الاصطلاحي في علم النفس يجعل من الأنا عملية بناء وهذه الأخيرة لا تتم إلا عبر مراحل وهذا البناء أساسه فاعلية الأنا من خلال الأدوار التي يقوم بها كعمليات التكيف والدفاع .

ج/ في علم الاجتماع:

إن الكلام عن الهوية في علم الاجتماع يجرنا إلى الكلام عن الفرد (الهوية الفردية) والى انتماء هذا الفرد إلى الجماعة (الهوية الجماعية) و ''كلمة فرد individu تعني ..... مجتمع ما[٧]. إن الكلام عن الفرد يحيلنا إلى الجماعة لأن الفرد كذات لا تتحقق إلا داخل جماعة ففي علم الاجتماع تعبر الهوية عن الانتماء بكل أشكاله، كالانتماء إلى جماعة ' أو إلى منظمة أو إلى طبقة اجتماعية ' أو إلى دولة أو أمة. وقد يكون الانتماء كذلك إلى العرق أو إلى الدين وإلى القبيلة... ومن هنا تتحدد الهوية الاجتماعية على أنها ليست إلا '' النتيجة النهائية المؤقتة الفردية والجماعية، الذاتية والموضوعية، البيوغرافية والبنيوية. لمختلف صيرورات التنشئة الاجتماعية التي تبني الأفراد والمؤسسات[٨] مما يعني أن الهوية تتشكل عبر مستويات متعددة من الانتماءات.

وحين الكلام عن علاقة الأنا النفسي بالأنا الاجتماعي، تطرح قضية أيهم أسبق. النفسي أم الاجتماعي. فهناك من يذهب إلى تأكيد أسبقية الأنا الاجتماعي عن النفسي في الوجود. « ففي إطار المجتمعات الأولية لا وجود للأنا الفردية ، فالأنا هو الأنا الاجتماعي فحسب، فهو يسهم في المشاركة الجمعية.... إذ لا وجود للإنسان المحدد إلا من خلال انتمائه الجمعي[٩] » (لأن الأنا النفسي هو في أصله أنا اجتماعي. وهذا ما أشار إليه المفكر الفرنسي أليكس ماكيلي Alex mucchielli في كتابه الهوية حين أكد على أن هذا الأمر يعود إلى إجماع المفكرين والعلماء في السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والمؤرخين بأن هناك " أنا اجتماعية أولية مشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة واحدة متماسكة" [١٠].

وإذا كان الأنا في أصله اجتماعي.فان هذا الوضع يجعل من الأنا يشعر بالانتماء الذي يميزه عن الآخر المختلف. لذلك كان الناس يحتاجون في تحديد هويتهم إلى الآخرين فهل يمكن أن يكون هذا الآخر عدوا؟

حسب المفكر الأمريكي صامويل هنتغتون Huntigton :إن التجربة التاريخية والتحليل السوسيولوجي يبينان أن غياب العنصر الخارجي (الآخر) يضعف الوحدة ويولد الانقسامات في المجتمع لذلك فان تحديد الهوية قد يجعل الفرد محتاجا إلى الآخرين، حتى ولو كان هذا الآخر بعيدا عنا، فالمهم أنه يشكل حاجزا نفسيا بالنسبة إلينا حتى نتمكن من مقارنة أنفسنا به، فالمقارنة تخلق المنافسة والحذر[١١] وعندما يكون هذا الآخر هو العدو الذي يهددنا فإننا نحذره ونحتاط منه ويكون بالرغم من ذلك، العنصر الأخطر الذي يشكل هويتنا ويجعلها قادرة على الصمود أمام الهويات الفرعية الأخرى.

إن تواجد الاستعمار إبان الحركة الوطنية اضطرها إلى الوحدة لأجل افتكاك الاستقلال رغم ما كان بينها من اختلافات.

يؤكد هذا الموقف بيار كلاستير في كتابه أصل العنف والدولة، فيبين أن الحرب على الآخر هي أداة الحفاظ على الهوية.مما يعني أن أية جماعة أو شعب لا يشعر بوحدته وتميزه إلا عندما يتم تحديد الآخر على أنه العدو الذي يهدده و يريد اقتلاعه من الوجود(١٢).

يمكننا تلخيص القول أن دراسة الهوية تتم من خلال النظر إليها عبر ثلاث مستويات:

– على المستوى الفردي يتم التركيز على شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة وبما تمده هذه الأخيرة من قيم ومشاعر واتجاهات.

– وعلى المستوى الجماعي يتمثل في التعبير الجمعي عن الهوية من خلال

الانتماء إلى أشكال التنظيمات على اختلافها.

– أما المستوى الأخير فيتمثل في تصور الهوية كاختلاف تعدد ثقافي، خاصة عندما يصبح وجود هذا الأخير بالرغم من سلبيته إلا أن ايجابيته تكمن في دفعه لنا إلى الالتئام وتحقيق وحدتنا.

٣/ قياس الخطابين الإدماجي و الإصلاحي على مفهوم الهوية

٣–١ الخطاب الإدماجي :

إن النظرة المتفحصة للمجتمع الجزائري غداة الاستعمار تبرز لنا وجود عاملين فاعلين في المجتمع الجزائري يمثلهما المثقفون ذوي التكوين الفرنسي في مقابل المثقفين المعربين أصحاب التوجه الإصلاحي ، ويبقى الشعب الممثل للغالبية العظمى والذي كان يعيش حالة من الجهل والأمية بين نزعتين متصارعتين (التحديثية والمحافظة).

إن الخطاب الإدماجي يمثله الدكتور بن جلول و الصيدلاني فرحات عباس الشاب وقد ارتبط مع مرور الوقت بشخص هذا الأخير« المولود في مدينة الطاهير سنة ١٨٩٩، وبتكوينه الاجتماعي كابن قايد، وبمستواه الثقافي كمتعلم في المدرسة الفرنسية» [١٣].

كان من ميزاته جهله بالثقافة الإسلامية.« انتخب سنة ١٩٢٦ رئيسا لجمعية الطلبة المسلمين ثم رئيسا لجمعية الطلبة لشمال افريقي» [١٤].

كان يعتبر نفسه رجلا إصلاحيا تقدميا. أنشأ أول حزب أطلق عليه الاتحاد الشعبي الجزائري، يمثل غالبية حزبه الطبقة البرجوازية الصغيرة وهم أصحاب الشهادات والمثقفون ثقافة فرنسية . كانت مطالبه الأساسية ربط الجزائر بفرنسا. فكان من الشعارات التي يرددها « أن السياسة الفرنسية في الجزائر لا يكون لها سوى شكل واحد وهو الاندماج». [١٥]

كان يهدف من دعوته الإدماجية تطوير وتحضير المجتمع الجزائري، مقتديا في ذلك بما وصلت إليه حداثة المجتمع الفرنسي. فكانت مواقفه في بداية أمره تمثل الولاء والاندماج في الثقافة الفرنسية وتشكيل شعب واحد تحت حكومة واحدة هي الحكومة الفرنسية. لتصبح الجزائر مقاطعة من المقاطعات الفرنسية.

فقد ذهب به الأمر من أجل ذلك إلى نفي الوطن الجزائري من الوجود عندما صرح قائلا:« الجزائر كوطن هو مجرد أسطورة لأنني لم أعثر عليها، لقد سألت التاريخ والأمهات والأحياء وزرت المقابر، لكن لا أحد حدثني عنها... » [١٦]

هذا الموقف الاعدامي للوطن الجزائري يعبر عن اعتراف بفضل الآخر على أنه مصدر وجودنا .لهذا كان لزاما إخضاع هذا الخطاب الإدماجي للمقايسة.

أ /- الآخر بالنسبة للهوية قد يمثل التهديد والخطر وتواجده يعزز اللحمة الوطنية.

إن أول مفهوم يواجهنا عند التطرق لقضية الهوية كونها تمثل الاختلاف عن الآخر .(أنا في مقابل الآخر)، يبرز في خطاب فرحات عباس الشاب الذي نجده يطالب ''بإحداث إصلاحات اجتماعية في إطار النظام الاستعماري تحت سيادة الحكومة الفرنسية، بحيث تسمح تلك الإصلاحات بالحصول على كامل حقوق العضوية في المجتمع الفرنسي كما هو الحال بالنسبة إلى المواطنين المقيمين في الجزائر [١٧] هنا يرتفع الاختلاف بين الأنا والآخر ليتحول إلى تماثل فتعدم بذلك الهوية. لكن هذه العدمية قد تكون عاملا مساعدا على توحدنا وتكتلنا.

هذا ما يعبر عنه صامويل هنتغتون huntigton عندما يرى أن الهوية تزداد وحدة و تماسكا حينما يمثل الآخر خطرا وتهديدا لها.يقول نور الدين أفاية في كتابه الغرب المتخيل: '' أن الآخر بوصفه اختلافا دينيا أو ثقافيا يشكل أفقا للذات، وأحيانا جزءا من النظرة إلى الذات سواء تقدم باعتباره شريكا مسالما أو في هيئة كيان غاز أو في صفة محتل متغطرس أو مفاوض مهادن أو تقدم إلى مساحة الوعي كاختلاف جسدي أو ثقافي. [١٨]

إن دعوة فرحات عباس إلى الإدماج والمساواة دفعته إلى تغييب الهوية العربية الإسلامية خاصة عندما قال: "إن الجزائر فرنسية ونحن فرنسيون [١٩] يكون بهذه الدعوة إلى الإدماج قد غيب الأنا وأكد على حضور الآخر وهذا يخل بالمبدأ الثاني الذي تقوم عليه الهوية.

ب/- من مميزات الهوية الشعور بالانتماء إلى الدين الواحد ،الذي يمثل مرجعية المرجعيات ، فعندما يغيب عنصر الدين من المجتمع فذلك معناه الدعوة إلى علمنة الحياة. هذه الميزة تنتفي في خطاب فرحات عباس في سبيل المساواة بين الجزائريين والفرنسيين . فعندما يقول :" ينبغي أن لا تكون هذه الدولة المنتظرة دومينيونا يكون

للأوروبيين عليه حق الاحتكار المطلق ،بل ينبغي أن تكون هذه الدولة جمهورية ديمقراطية اجتماعية قائمة على أساس اتحاد أخوي بين جميع الجزائريين مهما كانت جنسيتهم وديانتهم وعلى أساس إعطاء كل ذي حق حقه من السيادة. [٢٠] يظهر خطاب فرحات عباس سابحا في نوع من المثالية السلبية التي كثيرا ما جعلته يصطدم بمرور الأيام مع الواقع المرير لحال الجزائريين أمام دولة متعنتة .لا يمثلون لها أدنى اعتبار.

ج/–من مميزاتها كذلك الشعور بالانتماء إلى دولة أو إلى أمة أو إلى ثقافة أصيلة أو إلى وطن لكن مثل هذه المفاهيم تختفي في خطاب فرحات عباس . لقد ارتكب خطأ" فادحا عندما قال : "ومع ذلك فلن أموت من أجل الوطن الجزائري ، لأن هذا الوطن لا وجود له، ولم أكتشف هذا الوطن ، لقد ناقشت التاريخ وسألت الأحياء والأموات وزرت المقابر ، فلم يحدثني عن هذ ا الوطن[٢١]

إن استنطاق هذه المقولة تجعلنا نتساءل :أين الجزائر الأمة والوطن والدولة. والجواب أن كل هذا خرافة عند فرحات عباس.إن مثل هذا التصور يعكس حالة من الاغتراب الثقافي والهوياتي لدى النخبة المثقفة ثقافة فرنسية.ثم إن هذا الخطاب يخفي وراءه أن الجزائر لم تكن أمة ولم تنعم أبدا بالسيادة وإنما كانت مسرحا للنهب الأجنبي الدخيل.

انطلاقا من هذا الموقف يمكن القول أن خطاب فرحات عباس يهدف إلى جملة من الأبعاد الخطيرة على مستقبل الجزائر.

كونه يصب في فرضية أن العرب المسلمين كانوا مجرد دخلاء مستعمرين لا فاتحين فهم لا يختلفون عن باقي الوافدين إلى أرض الجزائر عبر التاريخ. بذلك يكون قد روج لمقولة أن العرب مجرد غازين لا فاتحين للسكان الأصليين وهم الامازيغ أو البربر.

ومن نتائج ذلك، خلق فلسفة اندماجية'' تحاول اختصار معادلة التمييز على أساس الجنس في قيمة مركزية هي المساواة دون الطعن في مكاسب الفرنسيين من المعمرين، بل فقط نيل حقوق لا تشكل خطرا على الوضع القائم كما فرضته الإرادة الاستعمارية، ذلك أنها تبرز إمكانية العيش المشترك تحت راية فرنسا الأم مهما كانت الاختلافات في القيم(٢٢).

يظهر من خطاب فرحات عباس الشاب أن هاجسه كان في المطالبة بمساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق ،أي في امتلاك حق المواطنة. ولا تهمه هوية الجزائر ولا عروبتها ولا ديانتها الممثلة في الإسلام، فيكون بذلك قد وقع في أحضان الأيديولوجية الفرنسية الداعية إلى تغريب المجتمع الجزائري وغربنته.

٢/٣- في الخطاب الإصلاحي:

إن طرح الهوية بالشكل الذي نادى به التيار الاندماجي و على رأسه فرحات عباس هيج الطرف الأخرى، نتيجة الشعور بالاغتراب وبالعدمية ، لذلك كانت الرغبة قوية للخروج من هذه الحالة المأساوية التي أوجدها المشروع الاستعماري ومن والاه. فكانت الردود عنيفة ومباشرة.

يمثل الطرف الثاني أنصار القومية العربية الإسلامية ممثلا في'' جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورجال الطرق الصوفية ، وتؤيده سياسيا حركة نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب الجزائري، وحركة أحباب البيان والحرية وحركة الانتصار للحريات الديموقراطية وجبهة التحرير الوطني الجزائرية سنة ١٩٥٤ الذي كان يطالب بتحرير الجزائر دون التخلي عن ثقافتها الإسلامية ، مقاوما في ذلك كل دعوة إلى الإدماج.(٢٣)

يتأسس الخطاب الإصلاحي بزعامة عبد الحميد بن باديس على العقيدة السلفية والمذهب المالكي. وبذلك يمكن الجزم أن مرجعية الخطاب الإصلاحي عند الجمعية "مرجعية دينية خالصة سحبت معها مباني الهوية القائمة على اللغة العربية

والعمق التاريخي للمجتمع الجزائري بقيمه التي تربطه بالعالم الإسلامي الأرحب الذي يشكل أمة. المجتمع الذي يتعرض إلى محاولات مستمرة لسلخه عن هذه المقومات التي قولبت شخصيته القاعدية [٢٤].

لقد كان رد الجمعية قاسيا ونابعا من عقلانية واقعية مفادها أن "الفرد الجزائري لم يعد يستطيع تعريف نفسه لا ضمن الإطار الفرنسي لأنه يضل مرفوضا لا يستحق حتى تعريفه كمواطن بالحصول على الجنسية ، أو بالاعتراف بهويته الوطنية . إن هذا الزيغ دفع إلى الواجهة مسألة إعادة تعريف الذات من خلال التوجه إلى إحياء عناصر ثقافته عن طريق بعث عي وطني ، من خلال العمل الثقافي سواء عبر المنابر الإعلامية أو عبر النشاط التربوي والتعليمي بالاستناد إلى التراث العربي – الإسلامي[٢٥].

على هذا الأساس إذا حاولنا قياس الخطاب الإصلاحي على محددات الهوية. يمكن حصرها في النقاط الآتية:

أ/- إذا رجعنا إلى المقوم الأول التي تقوم عليه الهوية والمتمثل في مفهوم الاختلاف .

إن الهوية لا يمكن أن تؤدي معناها الحقيقي على أكمل وجه إلا داخل مجموعة من العلاقات البنائية ومنها بنية التعارض أو التقابل ،ومن المفاهيم التي تقابل الهوية ،الغيرية أو الاختلاف.

إن مفهوم الغيرية altérité بالفرنسية مشتقة من اللاتنية والتي تعني الآخر الذي يعرف في الاصطلاح "على أنه خاصية ما هو غير،أي ما يقابل الأنا ،أما من الناحية الفلسفية فانه يعرف على أنه تعبير عن التنوع والاختلاف، وكل ما هو غريب عن الذات'' .[٢٦] فالهوية لا تتشكل إلا عندما يتم إدراكها للآخر المختلف، لأن خطاب جمعية العلماء يتأسس « على الاختلاف والاعتزاز بالنفس وبذلك إثبات للذات المسحوقة. » [٢٧] لقد جاء الخطاب الإصلاحي مؤكدا على ثنائية الأنا والآخر، فهو

يعمل على تثبيت وجودية الأنا ويقر بقبول اختلاف الآخر .هذه الثنائية لا تتجسد إلا بتحقق الأنا الذي أعدمه الخطاب الإدماجي. ليطرح السؤال:كيف تم إثباته في الخطاب الإصلاحي؟

لقد تم أولا بالرد على فرحات عباس عندما قال الشيخ بن باديس :"إننا فتشنا في صحف التاريخ و فتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية متكونة موجودة ، كما تكونت و وجدت كل أمم الدنيا [٢٨].

وثانيا عندما رفع شعار الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني تعبير عن أمة متميزة مختلفة عن الأمة الفرنسية.

هذه الأمة التي كان يقصد بها الدولة والوطن والشعب، يستحيل إدماجها في فرنسا ."لأن هذه الأمة الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ،لا تريد أن تندمج[٢٩] هكذا كان إثبات الأنا لان بدونه لا يتحقق الآخر ولا يمكن تصوره.أو خلق صورة نمطية له.

ب/- الإخلال بثنائية الأنا والآخر يعدم الأنا "الهوية"

إن الآخر في تصور الخطاب الإصلاحي هو المختلف، وهو العدو الذي ينبغي مقاومته. والمقاومة في الفكر الإصلاحي تقوم على جبهتين :

١- جبهة داخلية "مقاومة داخلية "تتمثل في محاربة البدع والخرافات التي ألصقت بالدين والرجوع بالدين إلى حالته الخالصة الصحيحة ومقاومة أهل الإدماج.
٢- مقاومة خارجية تتمثل في محاربة الاستعمار الفرنسي عن طريق العمل على نشر العربية والعمل على تعميمها لتأكيد طابعها الوطني. لان الأمة التي تصطنع لغة غيرها من الأمم تفقد ذاتيتها وتذوب في كيان الأمة التي اقتبست لغتها.

ب/- إقصاء الشعور بالانتماء إلى الدين وإلى الأمة وإلى التاريخ هو إعدام للأمة نهائيا فكان على الجمعية إثبات الانتماء .

من مبادرات جمعية العلماء المسلمين في هذا الإطار تقديرها لنفسها على أنها حركة دينية ثقافية وليست سياسية، بذلك تكون قد مهدت الطريق للدفاع عن انتمائها إلى الهوية العربية الإسلامية.

إن إستراتيجية الجمعية مع النظام الاستعماري« يبدو فيها نوع من الذكاء السياسي، فقد رفضت الإدماج من جهة عندما ميزت بين الجنسية القومية للإبقاء على الهوية الثقافية بعيدا عن الهوية السياسية، وهذا نوع من القبول بالنظام السياسي الفرنسي والدخول تحت وصايته لاكتساب المواطنة والحفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية.[٣٠] لتتفادى بذلك كل ما ألحق من أذى ومن مسخ حضاري بهوية المجتمع الجزائري.

يظهر أن العملية تكتيكية لان الحفاظ على الهوية الثقافية والحفاظ على كيان المجتمع أولى من اندماجه مع الأمة الفرنسية ،فتصبح الهوية الثقافية دافعا للمطالبة بالهوية السياسية.

ذهب المؤرخ الايطالي فيكو: أن أية أمة عندما تبتلى بالاستعمار تكون أمام حلول ثلاثة: الذوبان أو الانسلاخ أو الاستقلال. وحسب هذا المؤرخ يتحدد مصير الشعوب حسب مدى قدرتها على اختيار الحل الذي يتجاوب وإمكانياتها وحيويتها وأصالتها.[٣١] فالأمة التي اختارت طريق الذوبان حكمت على نفسها بالفناء، أما التي اختارت الحل الثاني "الانسلاخ" فهو الحل الذي يأتيها من الخارج، تتقبله الأمة التي لها القابلية للاستعمار بتعبير مالك بن نبي. أما التي اختارت الاستقلال والحفاظ على الذاتية فهي الأمة التي ترفض الدخيل عنها. والتي تتشبث بأصالتها وهويتها. هذا الذي لجأت إليه جمعية العلماء المسلمين وجاهدت من أجله.

خاتمة

ما يمكن استنتاجه أو حوصلته نلخصه في هذه النقاط:

– إن الصراع الذي عايشته الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية ما زال يطرح نفسه اليوم على الساحة السياسية .

– يمكننا الإقرار بوجود مرجعيتين مختلفتين أحداهما تعدم الهوية في سبيل الإدماج. وأخرى تعمل على رسيخها بإثبات الخصوصية ذات الامتداد العربي والإسلامي من خلال الثلاثية التي أطلقها ابن باديس ممثلة في :الدين واللغة والوطن.وهذا يعني تقريب الفرد الجزائري من بيئته الإسلامية الأصيلة، خلاف الثقافة اللائكية التي كان يروج لها الخطاب الإدماجي. والتي تجعل الجزائري يعيش اغترابا ثقافيا. .

– إن التيار الإدماجي يمثل دعوة للتماهي في المشروع الاستعماري. والذي يرسم صورة ذلك الجزائري الذي ينعت بالتخلف والخذلان. والشخص المقبول بشكل ازدرائي. في مقابل خطاب يقوم على قراءة انتقائية واختزالية للتاريخ. تقدم صورة لذلك الإنسان المتحرر المعتز بوجوده وبوطنه والمتشبث بأرضه وقيمه الإنسانية.

– يتجدد هذا الصراع اليوم في جزائر ما بعد الاستقلال ليكرس ثنائية النخبة المثقفة ثقافة فرنسية والنخبة ذات الثقافة العربية الإسلامية، هذا ما يؤكده الباحث الجزائري ناصر جابي في كتابه :الجزائر الدولة والنخب .

الهوامش والمصادر

(١) جيرار جهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة اليونانية،مكتبة النهضة المصرية،ط ٥،القاهرة ١٩٦٦،ص١٧.

(2)jacqueline Russ, clotilel leguil ; dictionnaire de philosophie, bordas, paris 2004,p 188.

(٣) جميل صليبا ،المعجم الفلسفي الجزء الأول دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢،ص ٢٣٥.

(٤) يوسف كرم،تاريخ الفلسفة اليونانية ، مكتبة النهضة المصرية ،ط ٥ القاهرة ١٩٦٦ ص٢٩.

(٥) يوسف كرم ،المرجع نفسه،ص ١٧.

(6)Michel Blaye, grand dictionnaire de philosophie Larousse, CNRS, édition 2005,p680.

(7)L.M.Morfaux, vocabulaire de la philosophie et des sciences humaines, Armand colin, paris1980,p167.

(8)Claude Dubar, la crise des identités, l'interprétation d'une mutation, presses universitaires de France(puf), paris 2000, p2

(9)Alex Mucchielli, l'identité ,(puf) 4eme édition, paris 1986,p85.

(10) Alex Mucchielli ,p84.

(١١) صامويل هنتغتون،أمريكا الأنا و الآخر،من نحن ؟الجدل الكبير في أمريكا،ص ٤٧.

(١٢) بيار كلاستير.....ص؟

(١٣)عبد السلام فيلالي ، الجزائر الدولة و المجتمع،دار الوسام العربي الجزائر الطبعة ١ ، ٢٠١٣. ،ص١٦٨.

(١٤) رابح لونيسي ، سلسلة الأبطال من وطني -١٥- دار المعرفة، الجزائر، ص٣٠.

(١٥) فرحات عباس، ليل الاستعمار(الحزب و ثورتها) نقله الى العربية أبو بكر رحال، مطبعة الفضلة، الرباط، المحمدية، دت،ص ٢١٨.

(16)Ahmed hanache, la longue marche de la l'Algérie combattante (1830 /1962) ;édition dahleb, alger,p56.

(١٧) سليمان الرياشي وآخرون،الأزمة الجزائرية،الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية،مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢،بيروت ، ١٩٩٩، ص ٢١.

(١٨) محمد نور الدين أفاية ،الغرب و المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط،المركز الثقافي العربي ط١،الدار البيضاء٢٠٠٠،ص٥١.

(١٩) فرحات عباس،الشاب الجزائري ، ترجمة أحمد منور، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة الجزائرية)٢٠٠٧،ص٩٩.

(٢٠) مجموعة من الباحثين،الاديولوجيات السياسية للحركة الوطنية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية (١٩٢٦،١٩٥٣)،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون، الجزائر،ص ٥١ .

(٢١)عبد السلام فيلالي ، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٢٢) المرجع نفسه، ص١٨٦.

(٢٣) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٥، ص ٩٧.

(٢٤) د/ عبد السلام فيلالي ، المرجع السابق ، ص١٨٣.

(٢٥) د/- عبد السلام فيلالي، المرجع نفسه، ص ١٨٣.

(26)jacqueline Russ, Clotiled badal lequil, dictionnaire de philosophie, bordas 2004,p36.

(٢٧) د- عبد السلام فيلالي، المرجع السابق ، ص ١٨٥.

(٢٨) عبد الحميد بن باديس، الشهاب،المجلد الثاني عشر،دار المغرب الإسلامي ،ط١، بيروت ٢٠٠١،ص ٤٧.

(٢٩)عبد الحميد بن باديس،المرجع نفسه،ص ص ٤٧ ٤٨.

(30)l'houari Addi,l'impasse du populisme, l'Algerie collectivité politique.et état en construction, enal, Alger 1990,p49

(٣١) ناصر الدين سعيدوني ،الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية،عالم المعرفة،ط٢،الجزائر،ص ٢٧٨.